﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: 189]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عذابُ الله عدلٌ مطلَقٌ وجزاءٌ حَكيمٌ

لَمّا فوَّضَ نَبيُّ الله شُعَيْبٌ ﷺ العِلْمَ لله وجَرَّدَ نَفْسَهُ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ، ناسبَ ذكرَ موقفِ قومِه ممّا قال، بذكر تكذيبِهم؛ فأنزل الله عليهم العذابَ العظيمَ جزاءَ كفرِهم وعنادِهم؛ وفيه بيانٌ أنَّ عذابَ الله تعالى هو عدلٌ ناشئٌ عن علمٍ وحِكمَة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾: (أخذ) أَصْلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيْءِ وجَمْعِه[1]، فالأَخْذُ هو التَّناوُلُ، والإيقاعُ بالشَّخْصِ، والعُقوبَةُ، يُقال: أَخَذَهُ بذَنْبِه مُؤاخَذَةً، ولا يُقال: واخَذَهُ؛ ويقالُ: ائْتَخَذوا، بهمزتين: أخَذَ بعضُهم بعضاً[2]، والمقصودُ بالأخذ في قول الله تعالى ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ نيلُ العذابِ إيّاهم، بإصابة مقتلِهم.

2) ﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾: (ظلّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، فالظُّلَّةُ: ما سَتَرَكَ مِنْ فوْقٍ، والجَمعُ ظُلَلٌ وظِلالٌ، وقيلَ: ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾؛ لأَنَّ اللهَ تَعالَى بَعَثَ غَمامَةً حارَّةً فأَطْبَقَتْ عليْهم وهَلَكوا تَحْتَها، وكُلُّ ما أَطَبَقَ عليْكَ فهوَ ظُلَّة، وكَذلِكَ كُلُّ ما أَظَلَّكَ، وقيلَ: ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ هو غَيْمٌ تَحْتَهُ سَمومٌ، وهي سَحابَةٌ أَظَلَّتْهُم فلَجَؤوا إِلَى ظِلِّها مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ فأَطْبَقَتْ عليْهم وأَهْلَكَتْهُم[3]، و﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾: السَّحابَةُ، كانَتْ فيها صَواعِقُ مُتَتابِعَةٌ أَصابَتْهُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).

فأَهْلَكَتْهُم؛ وقَدْ كانَ العَذابُ مِنْ جِنْسِ ما سَأَلوهُ، مِنْ إِسْقاطِ شَيْءٍ مِنَ السَّماءِ[1].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لما كذّب قومُ شُعيب برسالته جرت عليهم سنّةُ الله في القوم المُكذّبين، فنزلَ بهم العذابُ الذي قضاه الله في شأنهم، وكان عذابًا عظيمًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ فاءِ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ودلالتُها:

الفاءُ في قولِ الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فصيحَةٌ، أَيْ: فتَبَيَّنَ مِنْ قَوْلِهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أَنَّهُم كَذَّبوهُ، أَي: تَبَيَّنَ التَّكْذيبُ والثَّباتُ عليْه، كَما دَلَّ عليْه ما قَصَدوهُ مِنْ تَعْجيزِه إِذْ قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]؛ فقَدْ أَفصَحَتِ الفاءُ عَنْ جُمَلٍ مَحْذوفَةٍ مَعَ إِفادَتِها التَّرْتيبَ والتَّعْقيبَ، أَي أَنَّ التَّكْذيبَ وقَعَ عَقِبَ قَوْلِهم مُتَرَتِّبًا عليْه مُسَبَّبًا عَنْهُ، ففيها كَذَلِكَ معنى السَّبَبيَّةِ، ويُحْتَمَلُ أَن تَكونَ الفاءُ عاطِفَةً مَعَ ما سَبَقَ مِنْ معاني التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ والسَّبَبيَّةِ، وفي ذَلِكَ مُبالَغَةٌ في التَّكْذيبِ؛ ويَكونُ المَعْنَى أَنَّهُم اسْتَمَرّوا على تَكْذيبِهِ، وكَذَّبوهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، ليُفيدَ التَّكْثيرَ، وأَنَّهُم كَذَّبوهُ في كُلِّ ما قالَهُ لَهُم، ومنه إِسْنادُ العِلْمِ بِما يَعْمَلونَ إِلَى الله تَعالَى، ففيه معنى المُبالَغَةِ والإِمعانِ في التَّكْذيبِ والعِنادِ.

الفاءُ فصيحَةٌ تَحْمِلُ معانيَ التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ والسَّبَبيَّةِ

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ (فَعَّلَ):

التَّعْبيرُ بِصيغَةِ (فعَّل) مُشَدَّدَ العَيْنِ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يَدُلُّ على بُلوغِهِم الغايَةَ العُظْمَى في التَّكْذيبِ والرَّفْضِ والازْدِراءِ والصَّدِّ عَنْ دينِ اللهِ، وأَنَّهُم وصَفوه بِالكَذِبِ الصَّريحِ؛ وفي ذَلِكَ بَيانٌ لِتَعَدّيهم على قُدْسيَّةِ أَنْبياءِ الله تعالى.

المُبالَغَةُ في التَّكْذيبِ اعتداءٌ بالغٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 191، 190.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 191، 190.

بلاغةُ ذكر مُفردةِ التَّكذيب:

الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ

صَرَّحَ النَّظْمُ الكَريمُ بِلَفْظِ التَّكْذيبِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ - مَعَ أَنَّ ما قَبْلَهُ مِنَ الكَلامِ يُفيدُ بِلازِمِه تَكْذيبَهُم شُعَيْبًا عليه السلام - لِيُبَيِّنَ أَنَّ الجَزاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وأَنَّ العَذابَ ما أَظَلَّهُم إِلّا مِنْ أَجَلِ التَّكْذيبِ، وفي ذَلِكَ إِحْقاقٌ لِعَدالَةِ اللّه تعالى، وأَنَّه سبحانه ما كان ليأخذ الظّالمين إلّا بعد بيانِ المَحَجَّة، ووقوعِ المَعصيَة.

نوعُ فاءِ ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ ودلالتُها:

تحتمل الفاءُ التَّعْقيبَ والسَّبَبيَّة

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ أفادت التَّعْقيبَ، والمعنى أَنَّ العذابَ وقَعَ عَقِبَ التّكذيب، فالجزاءُ من جنسِ العملِ؛ وهي تدلُّ على المُباغَتَةِ والفُجاءَة، وهذا أوقَعُ في الألمِ وأشدُّ، وقَدْ تُفيدُ السَّبَبيَّةَ، والمعْنَى أَنَّ العَذابَ مُسَبَّبٌ عَنِ التَّكْذيبِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المكنيَّة في ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾:

تصويرُ العذابِ بوحشٍ كاسرٍ آخذٍ للظّالمين

في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ شُبِّه العَذابُ بِالوَحْشِ الكاسِرِ، وحُذِفَ المشبَّه به ودَلَّ عليه بِلازِمِه وهوَ الأَخْذ، على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّة، وغرضُ ذلك: تَجْسيد العَذاب بِصورَةِ السَّبُعِ المُفْتَرِسِ، الذي يَأْخُذُ بِلا هَوادَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ؛ فلَم يَقُلْ: (فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِعَذاب)، وإِنَّما جَعل العَذابَ آخذًا، لبيان هَول الموقفِ، وسَطوَة العذاب.

فائِدَةُ إضافَتَي ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾:

يتعيَّن معنى الإضافةِ بحسبِ مُفرداتِها وسياقِها

أُضيف العذابُ إلى الظَّرف ﴿يَوْمِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ والإضافَةَ على معنى في، إشارَةً إِلَى وُقوعِ اليَوْمِ ظَرْفًا لِلْعَذابِ؛ وجَعلتْهُ الإضافَةُ علمًا مُخْتَصًّا بِهَذا الاسْم: ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾، كما أُضيف ﴿يَوْمِ﴾ إِلَى ﴿ٱلظُّلَّةِۚ﴾ لإفادةِ الاخْتِصاصَ، أَي: تَخْصيصِ هَذا اليَوْمِ بيَوْمِ الظُّلَّةِ، ليَصيرَ مَعْروفًا بَيْنَ الأَيّامِ، مختصًّا بهذا الاسمِ، منبِّهًا على ما وقع فيه منَ العقابِ الأليم.

نكتةُ إضافةِ الـ﴿عَذَابُ﴾ إلَى ﴿يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ دون الظّلّة:

الإيـــذانُ بِـأَنَّ لَـهُـم عَـذابًـا آخَرَ مُبالَغَةً في الانْتِقامِ

في إضافَةِ العَذابِ إلَى يَوْمِ الظُّلَّةِ في قوله تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ دونَ الظُّلَّةِ نَفْسِها إيذانٌ بِأَنَّ لَهُم يَوْمَئِذٍ عَذابًا آخرَ غَيْرَ عَذابِ الظُّلَّةِ، وفي تَركِ بَيانِه تَعْظيمٌ لِأَمرِه، وتَفْخيمٌ لِشَأنِه، وحَتَّى تَذْهَبَ النَّفْسُ في تَصَوُّرِه كُلَّ مَذْهَبٍ مُمكِنٍ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّخْصيصُ لِلْمُبالَغَةِ في انْتِقامِ اللّهِ، حَيْثُ أَخَذَهُمُ اللّهُ بِنَحْوِ ما اقْتَرَحوا مِنْ عَذابِ الظُّلَّةِ إنْ أَرادوا بِالسَّماءِ السَّحابَ، وإنْ أَرادوا المَظَلَّةَ فقَدْ خالَفَ بِهِم عَنْ مُقْتَرَحِهِم[1]، فجاء التَّعبيرُ بيَوْمِ الظُّلَّةِ مُشاكَلَةً لِما اقْتَرَحوهُ مِنْ إسْقاطِ كِسفٍ مِنَ السَّماءِ عليْهِم، عُقوبَةً لَهُم وتَنْكيلًا بِهِم، وتَحْقيقًا لِاسْتِعْجالِهِمُ العَذابَ، وليكونَ علمًا مَعْروفًا بَيْنَ الأَنامِ، زَجْرًا ورَدْعًا لِمَنْ يَسيرُ على شاكِلَتِهِم.

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ بـ﴿إِنَّهُۥ﴾:

الإشْعارُ بِضَراوَةِ العَذابِ وشِدَّتِه وتَوَحُّشِهِ

لَمّا كانَ الحالُ موجِبًا لِلسُّؤالِ عَنْ عذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، قالَ تَعالَى مُهَوِّلًا أمرَهُ ومُعْظِمًا قدرَهُ[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ على سَبيلِ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الخَبَرَ بِأَخْذِ عَذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ القَوْمَ، فذَكَرَ تَقْريرًا وافيًا عَنْ كُنْهِ هَذا العَذاب، وكَأَنَّ سائِلًا سَأَلَ: وما مِقْدارُ هَذا العَذابِ وما كُنْهُهُ؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ ففُصِلَتِ الجُمْلَةُ عَنْ سابِقَتِها لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ، كَما يُفْصَلُ الجَوابُ عَنِ السُّؤالِ، ووَراءَ الفَصْلِ المُؤَسَّسِ على الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ إشْعارٌ بِضَراوَةِ العَذابِ وشِدَّتِه، وأَنَّهُ مِمّا يَهولُ النَّفْسَ ويُفْزِعُ القَلْبَ ويَصْدَعُ الفُؤادَ.

فائِدَةُ التَّأْكيدِ بـ(إنّ):

أَفادَ التَّأْكيدُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 334.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 92.

شِدَّةَ ضَراوَةِ عَذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، فالتَّأْكيدُ راجِعٌ لِلْخَبَرِ ذاتِه ولَيْسَ لِلْمُخاطَبِ، تَأْكيدًا على هَوْلِه وفَظاعَتِه.

بلاغةُ مقتضى الحالِ في الإضمار من ﴿إِنَّهُۥ﴾:

تهويلُ شَأْنِ العَذابِ وتفخيمُ وقْعِه

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعودُ على عَذابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ، وهو آتٍ على مقتضى الظّاهر في إضمار المذكور، وعَوْدُ الضَّميرِ على العذاب بصيغَةِ الغائِبِ إشارَةٌ إِلَى أنَّه عذابٌ يُعرف بالإضمارِ والإظهار لهَوْلِه وشدّة وقعِه وأثره.

بَلاغَةُ تركيب الإسنادِ:

المعاني المهولةُ تتطلّب قوَّةً تركيبيّةً

جاءَ المُسْنَدُ خَبَرُ (إنَّ) جُملَةً مُكَوَّنَةً مِنْ كانَ واسْمِها وخَبَرِها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ ومَجيئُهُ على هَذا النَّحْوِ يوحي بتَوَغُّلِه في الشِّدَّةِ وتَعَمُّقِه في الهَوْلِ، والمُسْنَدُ الآخَرُ في الجملَةِ خَبَرُ كانَ، والتَّقْديرُ: (كانَ العذابُ عذابَ يَوْمٍ عَظيم)، وهوَ في الثّاني خَبَرٌ مُفْرَدٌ، لَكِنَّهُ مُضافٌ إِلَى مُضافٍ إِلَى مُضافٍ إِلَيْهِ، وهَكَذا يُشْعِرُكَ هَذا التَّداخُلُ والتَّرْكيبُ وتَتابُعُ الإضافاتِ بِثِقَلِ هَذا اليَوْمِ وشِدَّتِه وأَنَّ الوَصْفَ المُفْرَدَ لا يَنْهَضُ بِوَصْفِ عَذابِه وهَوْلِه.

دلالَةُ الإضافَةِ في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

سِنةُ العذابِ سَنةٌ وسَنةُ النّعيم سِنةٌ

إضافَةُ العَذابِ إِلَى اليَوْمِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ للتَّخْصيص؛ فهي تَدُلُّ على أَنَّ اليَوْمَ كُلَّهُ كانَ عَذابا، وحَسْبُكَ مِنْ يَوْمٍ يَشْتَدُّ عَذابُهُ ويَعْظُمُ مِنْ أَوَّلِه إِلَى آخِرِه دونَ تَوَقُّفٍ تُسْتَجْمَعُ فيه القوَى والقُدَرُ، وفيه تصويرُ العذاب بأَنَّه لليوم لا لغيرِه، مع طول زمانه، فإنَّ لحظاتِ العذاب تطول، بخلاف لحظات المتعة فقصيرة سريعة.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿يَوْمٍ﴾:

نُكِّرَ اليومُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لِلتَّهْويلِ والتَّفْخيم وبَيانِ شِدَّتِه على نُفوسِ القَوْمِ، وأَنَّهُ يَوْمٌ لا تُعْرَفُ لَهُ بِدايَةٌ ولا نِهايَةٌ.

نكتةُ وصْفِ ﴿يَوْمٍ﴾ بصفة ﴿عَظِيمٍ﴾:

الإمعانُ في الدّلالَةِ على الشِّدَّةِ والتَّهْوِيلِ

وُصِف اليَوْمُ بالعَظَمةِ في قول الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، دونَ تَعْظيمِ العَذابِ: إمعانًا في الدّلالَةِ على الشِّدَّةِ والهَوْلِ وفَظاعَةِ ما وقَعَ فيه مِنَ الطّامَّةِ، والدّاهيَةِ التّامَّة، واسْتِدْلالًا به على شِدَّةِ العَذابِ؛ فإذا كانَ اليَوْمُ عَظيمًا مَهولًا فما بالُكَ بالعَذابِ الواقِعِ فيهِ؟! وهذا أوقعُ في التَّهويل.

دلالةُ تنكيرِ ﴿عَظِيمٍ﴾:

تنكيرُ الأوصافِ يُعطيها معنى الشّيوعِ والذّيوعِ

نُكِّر وصْفُ ﴿عَظِيمٍ﴾ متابعةً للموصوف ﴿يَوْمٍ﴾ في قول الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وفي ذلك إشارَةٌ إلَى التَّهْويلِ والتَّفْخيم مِنْ شِدَّة ما وقَعَ في ذَلِكَ اليَوْم مِن انْتِقام وغَضَبٍ من رَبِّ العِبادِ على قَوْم انتَهَكوا حُرْمَةَ العِبادِ والبِلادِ، وكَذَّبوا نَبيَّ اللّهِ؛ فناسَبَ ذَلِكَ عَظَمَةُ العَذابِ وعَظَمَةُ اليَوْم، حَتَّى يُكافِئَ فِعْلَهُمُ الشَّنيعَ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»